

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ 30 ربيع الأول 1443 هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْمَرْءَ مُحْتَاجٌ لِلْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَأَوْجَدَهُ مِنَ الْعَدَمِ، ثُمَّ أَحْيَاهُ وَرَزَقَهُ، وَهُوَ الَّذِي بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْتُ هَذَا الْإِنْسَانِ وَحَيَاتُهُ، وَسَعَادَتُهُ وَرَاحَتُهُ، وَقَدْ خَاطَبَ اللَّهُ النَّاسَ جَمِيعًا، فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. إِنَّ لِلْعِبَادَةِ أَثْرًا فِي حَيَاةِ الْعَبْدِ وَسَعَادَتِهِ، وَبَرَكَةِ عُمُرِهِ، وَسَعَةِ رِزْقِهِ، بَلْ لَهَا أَثْرٌ فِي صَلَاحِ أَعْمَالِهِ، وَأَهْلِيهِ وَأَوْلَادِهِ، وَصِحَّتِهِ، بَلْ إِنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهِيَ حِرْزٌ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ وَنَارِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: إِذَا كَانَتِ الْعِبَادَةُ بِهَذِهِ الْأَهْمِيَّةِ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ، فَإِنَّ أَهْمِيَّتَهَا تَتَضَاعَفُ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ وَالْفِتَنِ، وَأَثَرُهَا يَقْوَىٰ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْمِحَنِ، وَدَوْرَهَا فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ يَظْهَرُ عِنْدَمَا تَحِلُّ الْمَشَاكِلُ وَالصَّرَاعَاتُ، وَيَنْزِلُ الْبَلَاءُ، فَتُصَابُ النُّفُوسُ بِالْقَلْقِ، وَالْهَمُّ وَالْحُزْنُ، وَعَدَمُ رَاحَةِ الْبَالِ، وَاسْتِقْرَارِ الْحَالِ. عِنْدَهَا لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِ مِنْ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى قُوَّةٍ يَسْتَمِدُّ الْعَوْنَ وَالْمَدَدَ مِنْهَا، وَيَحْصُلُ عَلَى الرَّاحَةِ وَالطَّمَأِينَةِ بِهَا، وَيَتَجَاوَزُ الْمِحْنَ وَالْفِتْنَ وَالْمَصَائِبَ وَالْإِبْتِلَاءَاتِ عَنْ طَرِيقِهَا، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ هِيَ قُوَّةُ اللَّهِ وَحْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الَّتِي يَصِلُ إِلَيْهَا الْعَبْدُ بِإِيمَانِهِ بِاللَّهِ، وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ، وَالنِّزَامِ شَرْعِهِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. فَالْعِبَادَةُ بِجَمِيعِ صُورِهَا مِنْ صَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَدُعَاءٍ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، وَالصَّدَقَةِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ، مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُعِينُ الْمُسْلِمَ عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَبِهَا يَتَأَلَّ حِفْظَ اللَّهِ وَرِعَايَتِهِ، وَتُدْفَعُ عَنْ أُمَّتِهِ وَمُجْتَمَعِهِ بِسَبَبِهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْفِتَنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ٦٦﴾ وَإِذَا

لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٧٨﴾. ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَتَعَرَّضُ لِلْفِتَنِ وَالْمَصَائِبِ وَالْمَحَنِ يَطِيشُ عَقْلَهُ، وَتَسْوَأُ تَصَرُّفَاتُهُ، وَتَزِيدُ ذُنُوبَهُ وَمَعَاصِيَهُ، وَتَكْثُرُ هُمُومُهُ وَأَحْزَانُهُ، فَيُخْسِرَ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ، وَلَا يَثْبُتُ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ إِلَّا مَنْ وَطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، وَلَمْ يَشْغَلْ بِمَا أَصَابَهُ عَمَّا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿١٧﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿١٨﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٠﴾. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَذْلَهَمَتِ الْخُطُوبُ، وَكَثُرَتِ الْهُمُومُ، وَتَوَالَتِ الْمَصَائِبُ وَالْإِبْتِلَاءَاتُ، لَا يَجِدُ مَلْجَأً وَطَرِيقًا لِلرَّاحَةِ إِلَّا فِي عِبَادَتِهِ، وَفِي صَلَاتِهِ، أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ قَالَ: انْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبِي، إِلَى صَهْرٍ لَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ نَعُودُهُ، فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَالَ لِبَعْضِ أَهْلِهِ: يَا جَارِيَةُ، ائْتُونِي بِوُضوءٍ لِعَلِّي أَصَلِّي فَأَسْتَرِيحَ، قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قُمْ يَا بِلَالُ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ لِلْعِبَادَةِ فِي زَمَانِ الْفِتَنِ أَجْرًا عَظِيمًا، وَثَوَابًا جَزِيلًا. أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَابْنُ مَاجَهَ، عَنْ مَعْقِلِ ابْنِ يَسَارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ». قَالَ الْحَافِظُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي «الْمِنْهَاجِ»: قَوْلُهُ ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ كَهَجْرَةِ إِلَيَّ»: الْمُرَادُ بِالْهَرَجِ هُنَا الْفِتْنَةُ، وَاخْتِلَاطُ أُمُورِ النَّاسِ، وَسَبَبُ كَثْرَةِ فَضْلِ الْعِبَادَةِ فِيهِ: أَنَّ النَّاسَ يَغْفُلُونَ عَنْهَا، وَيَشْتَغِلُونَ عَنْهَا، وَلَا يَتَفَرَّغُ لَهَا إِلَّا الْأَفْرَادُ. اهـ

لَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ الْفِتْنَ تَكْثُرُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، حَتَّى تَكُونَ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُطْمٍ مِنْ أَطَامِ الْمَدِينَةِ، ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟ إِنْ أَرَى مَوَاقِعَ الْفِتَنِ خِلَالَ بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ». وَهَذِهِ الْفِتْنُ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَهِيَ سَرِيعَةُ التَّأثيرِ عَلَى الْقُلُوبِ، نَعُودُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ

كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا».

وَبَوَّبَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «صَحِيحِهِ»: «بَابُ الْفِتْنَةِ الَّتِي تَمُوجُ كَمَوْجِ الْبَحْرِ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ خَلْفِ ابْنِ حَوْشَبٍ: كَانُوا يَسْتَحِبُّونَ أَنْ يَتَمَثَّلُوا بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ عِنْدَ الْفِتَنِ، قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

الْحَرْبُ أَوَّلُ مَا تَكُونُ فِتْيَةً تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهُولٍ
حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا وَلَّتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلٍ
شَمَطَاءَ يُنْكِرُ لَوْنَهَا وَتَغَيَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ لِلْعِبَادَاتِ الْخَفِيَّةِ ثَمَرَاتٍ عَظِيمَةً، مِنْهَا:

الْأَوَّلُ: أَنَّهَا عَلَامَةٌ صِدْقِ الْإِيمَانِ، فَلَا يَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ فِي الْخَلْوَةِ إِلَّا رَجُلٌ يُوقِنُ أَنَّ اللهُ يَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاهُ، وَمَا أَعْلَنَهُ وَمَا أَخْفَاهُ، وَهَذَا يُبْلَغُ بِالْعَبْدِ مَرْتَبَةَ الْإِحْسَانِ الْعَالِيَةِ، الَّتِي عَرَّفَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا جَاءَ لِيَعْلَمَ النَّاسَ دِينَهُمْ، فَقَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهُ كَأَنَّكَ تَرَاهُ؛ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

الثَّانِي: الثَّبَاتُ فِي الْمَحَنِ وَالشَّدَائِدِ وَالْفِتَنِ؛ ذَلِكَ أَنَّ عِبَادَةَ السِّرِّ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ فِي تَرْكِ الشَّهَوَاتِ، وَالشُّعُورِ بِلَذَّةِ الْعِبَادَاتِ، وَنُورِ الْوَجْهِ وَالْقَلْبِ، وَانْشِرَاحِ الصِّدْرِ، وَالتَّوْفِيقِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ. أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهَ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ ﷻ هَبَاءً مَنْثُورًا»، قَالَ ثَوْبَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا؛ أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا».

أَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي «الْحَلِيَّةِ»، وَابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ «الْإِخْلَاصِ وَالنِّيَّةِ»، عَنْ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: لَا تَكُنْ وَلِيًّا لِلَّهِ فِي الْعَلَانِيَةِ، وَعَدُوًّا فِي السَّرِيرَةِ.

وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْمَصْدَرِ السَّابِقِ» أَيضًا: الْإِنْسَانُ قَدْ يُخْفِي مَا لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ ﷻ، فَيُظْهِرُهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، وَيُنْطِقُ الْأَلْسِنَةَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ النَّاسُ، وَرُبَّمَا أَوْقَعَ صَاحِبَهُ فِي آفَةٍ يَفْضَحُهَا بِهَا بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَكُونُ جَوَابًا لِكُلِّ مَا أَخْفَى مِنَ الذُّنُوبِ، وَذَلِكَ لِيَلْعَمَ النَّاسُ أَنَّ هُنَالِكَ مَنْ يُجَازِي عَلَى الزَّلْلِ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ وَقُدْرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا اسْتِتَارٌ، وَلَا يُضَاعُ لَدَيْهِ عَمَلٌ.

وَقَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «الْجَوَابِ الْكَافِي» عَنْ آثَارِ الذُّنُوبِ: أَنْ يَخُونَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ عِنْدَ الْإِحْتِضَارِ وَالْإِنْقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَرُبَّمَا تَعَدَّرَ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ، كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضِرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ، حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ: آهَ آهَ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «جَامِعِ الْعُلُومِ وَالْحِكْمِ»: خَاتِمَةُ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، إِمَّا مِنْ جِهَةِ عَمَلٍ سَيِّئٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَتِلْكَ الْخَصْلَةُ الْخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ.

الثَّلَاثُ مِنْ ثِمَارِ عِبَادَةِ السِّرِّ: أَنَّهَا أَكْثَرُ أَجْرًا، وَأَعْظَمُ أَثْرًا، فَصَدَقَةُ السِّرِّ أَفْضَلُ مِنْ صَدَقَةِ الْعَلَانِيَةِ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».

الرَّابِعُ مِنْ ثِمَارِ عِبَادَةِ الْخُلُوةِ: أَنَّهَا سَبَبٌ فِي النَّجَاةِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْأَزْمَاتِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٢١﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وَفِي حَدِيثِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمُ الصَّخْرَةُ: أَنَّهُمْ بَحَثُوا عَنِ الْحَبِيَّةِ الصَّالِحَةِ الْخَالِصَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْ أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ.